

براجماتية الرومان

أسلوب الإستغلال و السيطرة الرومانية على المستعمرات

قال تاكيتوس "أن إيطاليا لم يصبها الجذب لكننا نفضل إستغلال أفريقيا ومصر لقد أصبحت حياة الشعب الروماني رهنا بالسفن". فكانت سياسة روما في الشرق تقوم على الدبلوماسية كما حدث في الكثير من البلدان مثل مصر وما حدث منذ بطلميوس فيلادلفوس ، إلى أن وقعت تحت أيدي الرومان عام ٣٠ ق.م ، أما التجارة أى البعد الإقتصادي فقد اعتمدت سياسة روما في هذا المجال على قوة حربية عظيمة أى فرض السيادة التجارية بالقوة المسلحة . فإن شمولية نظرية الأمن الروماني تحولت من إستراتيجية أمنية عسكرية بعد ضم قرطاج وبلاد اليونان (التوسعات خارج إيطاليا) إلى إستراتيجية أمن قومي. فاستشعرت الخطر الذي يهدد مصالحها فكان ذلك دافع لتحرك الوحدات العسكرية سريعاً وأخذ زمام المبادرة في شن الحروب الوقائية. فالبعد السياسي أيضاً الذي يتمثل في الحفاظ على كيان الدولة السياسي بعد حروب أهلية دامية دفعها إلى ذلك. فنحن نذكر أنه حتى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد كانت الجمهورية لا تملك أى جزء من شمال أفريقيا.

قضت روما على قرطاج كى تمنع ماسينسيا من ضمها إلى مملكته ، فتتعضم قوة نوميديا فى غرب البحر المتوسط ، فكانت حاجة روما الأساسية فى ذلك الوقت هو القمح الأفريقى فزودها بها خلفاء مسينسيا بسخاء و بانتظام ومن هنا بدأت الهجرات الرومانية إلى شمال أفريقيا. إلا أن دارت الحروب الأهلية فى روما وتعاضم التناقضات الإجتماعية والإختلافات والصراع إلى العرش فكانت روما بحاجة إلى أرض زراعية أخرى .

فبعد أن أتم الرومان السيطرة على الممتلكات القرطاجية فى الشمال الأفريقى سعوا إلى تأسيس ولايات رومانية فأقامت ولاية أفريقيا على أنقاض مملكة قرطاج و بقيت المدن الخارجية حتى إقليم المدن الثلاث (ليبيا) تحت السيطرة النوميديّة، وضم ولاية نوميديا لتصبح تابعة لروما وسميت بإسم أفريقيا الجديدة ، كما قام بتوزيع الكثير من الأراضى على جنوده المسرحين وعندما اعتلى أوكتافىوس الحكم بعد معركة أكتيوم البحرية عام ٣٠ ق.م ، كانت التنظيمات الإدارية تم تقسيمها فى الحكم بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ . فكانت الولايات التى بحاجة إلى حماية عسكرية تحت إشراف الإمبراطور والعكس لمجلس الشيوخ فكانت ولاية أفريقيا الشمالية والتى كانت تضم ولاية (أفريقيا وولاية أفريقيا الجديدة) تحت إسم الولاية البروقنصلية وأسند الحكم فيها إلى موظف بروقنصل الذى حكم بإسم مجلس الشيوخ.

من أجل السيطرة على الأراضي الزراعية الخصبة وخاصة ضواحي
تمجاد أقام الرومان مستعمرة تمجاد وأنشاء طريق يربط بين تبسه
وتمجاد عام ١٠٠م. وبناء الكثير من المستوطنات العسكرية في نوميديا
فقد ركز الإمبراطور هادريان (١١٧-١٣٨م) عند زيارته للامباز
عام ١٢٨م على ضرورة الإهتمام بالزراعة والتشديد على الفلاحين
لزراعة الكروم والحبوب. بالإضافة إلى ذلك فتطور حركة خط الليمس
والتي تعنى حماية الحدود الرومانية عن طريق بداية بإنشاء الخنادق
إلى القلاع والحصون والثكنات العسكرية والطرق المواصله بينهما
وبلغت لمعناها الكامل في عهد الإمبراطور أغسطس (٢٧ق.م - ١٤م)
وذلك لحماية حدود الدولة ضد الخطر المتزايد للشعوب البربرية الأمر
الذى قد يودى فى النهاية إلى السيطرة الرومانية ولضمان بقائهم
وإستقرارهم. فكانت الحركات المناهضة للإستعمار كثيرة منها حركة
يوغرتين (١١٢-١٠٥ق.م) وهى محاولة لرد المد الرومانى واتسمت
بسمة قومية إلا أن جاءت ثورة الزعيم تكفاريناس (١٧-٢٤م) حيث
استطاع هذا الزعيم توحيد العديد من القبائل تحت رايته مثل قبيلة
الموسولامى وقبائل المور والكينيثى وقبيلة الجرامنت التى كثيراً ما
أقلقت الرومان.

فى عام ١٧م أشتبك تكفاريناس بالرومان فى منطقته نوميديا ولكنه هزم على يد الوالى جماليوس ماركوس وسرعان ما رد الثوار على تلك الهزيمة بالسيطرة على بعض المناطق فاستدعى الرومان الفرقة الأسبانية التاسعة من بانونيا لدعم الفرقة الأوغسطية الثالثة وبالرغم من تعاقب الولاة على تلك الولاية إلا أنهم فشلوا فى إخماد تلك الثورة وربما كانت الأسباب الرئيسية لإستمرار تلك الثورة هى سحب الفرقة التى كانت تسأند الفرقة الأوغسطية للحفاظ على ردع الثورات وتضامن معظم القوى الوطنية وتزويدها بالجنود والمال وإتساع مساحة الرقعة الجغرافية للثورة ، الأمر الذى جعل من الصعب السيطرة عليها إلا أن جاء الولى دولا بيلاب واستطاع التغلب عليهم بعد مقتل تكفاريناس وأسر ابنه فى منطقة أوزية (سور الغزلان) كما قتل الكثيرين من أتباعه فيها فى سنة ٢٤م .

سياسة الرومان والألعاب

كانت سياسة روما في هذه البلاد تمتاز بالدهاء والحنكة وتبصر مدعومين بالقوة العسكرية إلى جانب إستغلالها للظروف الداخلية فتمكنت تلك السياسة من الإيقاع بهم في حبالها. ومن ثم إحاق بلادهم ضمن الممتلكات الرومانية فأرتببت الألعاب منذ ظهورها في روما بالسياسة حيث اتخذها رجال الدولة كمخدر لعقول العامة لصرفهم عن الأشتغال بالسياسة فردد الشاعر اللاتيني جوفينال حينما حصر هم الشعب الروماني في الحصول على الخبز الذي كان يوزع على العامة في روما بالمجان والعاب السيرك التي كانت تصرف الشعب عن أمور الحكم.

فكان تنظيم الألعاب في المجتمعات القديمة عبارة عن هبة يرجى من ورائها الحصول على مقابل فهو بمثابة إعتراف بالخضوع ذلك أن منظم هذه الألعاب ينتظر إعتراف الجمهور بمركزه الاجتماعي وسلطته الدينية والدنيوية عليهم.

فلسفة الرومان

يقول كاتو الأكبر " أن الروماني المثالي هو الرجل المقدم الفعال " ويقول الشاعر فرجيل وهو يصف الرجل الروماني " ضع نصب عينيك أن تسود الشعوب بسطانتك فتلك هي رسالتك: أن تفرض السلام وتصفح عن المقهورين وتقهّر المتجبرين."

فقد أنفرد الرومان بتطبيق فكرة "العالمية أو العولمة" بالقانون فقد ظهر ذكاء الرومان في حبهم للعمل فهم يحبون الميل إلى التطبيق في الحياة العملية بعيداً عن التنظير وظهر ذلك في ضم كل تلك الولايات وغرب حوض البحر المتوسط لسلطانها لقرابة الثلاث القرون الأولى للميلاد. فقد ادركت روما خلال العصر الإمبراطوري أهمية الولايات ولزوم تأمينها لضمان تدفق الأموال إلى العاصمة نتيجة الانتظام بتحصيل الضرائب وأيضاً إمدادها بالغلال ، ومنح الجنسية الرومانية بدأت على نطاق ضيق ثم توسعت لتشمل السكان في الولايات الذين لديهم النصاب المالي لتحمل عبء الوظائف المدنية عن طريق دستور كاراكلا الذي صدر عام ٢١٢م حتى جاء عصر دقلديانوس وأصدر قانون الأسعار الموحد الذي شمل جميع أنحاء الإمبراطورية.

فكرة السلام الروماني

لم يعمل الرومان على نشر السلام داخل إمبراطوريتهم وولاياتها كوسيلة للتعايش الإجتماعي والأيجابي بين الأمم فقد كان السلام الروماني هو سلام الأقوياء ليس سلام الضعفاء الذي تنادى به الأمم التي لاحول لها ولا قوة على مجابهة القوى الكبرى. السلام القائم على قوة السلاح لا السلام العازل. فقد كان السلام الروماني هو نتيجة سلسلة حروب متصلة لتحقيق طموحاتها الخارجية تفأني من خلالها العديد من القادة والجنود الرومان أنه ثمرة كفاح دام خمسة قرون من الزمن. فيقول رستوفتريف " أنهم كانوا في ميسيس الحاجة إلى السلام ولكن على أن يكون السلام للدولة الرومانية ". فعند النظر إلى تمثال السلام والذي تم وضعه في ميدان اله الحرب (الآله مارس) هو دلالة واضحة على أن السلام الذي يدوم يكون في ظل قوة مسلحة. " فقد صور الفنان الروماني روما كإلهة تجلس فوق كومة من السلاح المتنوع وتستند بيدها اليسرى على درع بينما تستند بيدها اليمنى على عمود به ترس مستدير وهو الترس الذي أهداه السناتو بإسم الشعب الروماني إلى الإمبراطور أغسطس ليزين به منزله على تلال البلاتين.

عندما وضعت الحروب البونية أوزارها في روما بدأت تفتح أفكار روما نحو السلام لتأكيد الروابط الاجتماعية والأقتصادية فخرجت من مجتمع زراعى إلى مجتمع تجارى حتى قيل أنه في ظل الأنفتاح العالمى ، أصبح البحر المتوسط "بحيرة رومانية داخلية". فى ضوء هذا ومع صبغ جميع علاقات الأفراد والشعوب بعضها ببعض بطابع الدين فى العهد القديم من المهد إلى الحد من أقل الوحدات السياسية إلى ساحات الحروب .

كل ذلك مهد الطريق إلى السيطرة الرومانية الكاملة والتي نتج عنها "عالم رومانى يكون ولاية واحده متماسكة الأجزاء. فبعد منح الجنسية الرومانية والتوسع فى إعطائها فأعطت الولايات أيضا حق التمثيل السياسى عن طريق فتح السفارات وحقوق المنتصر والمعاهدات وذلك كله فى نحو تحقيق "المدينة العالمية" وهذا كله ليس مع ولاياتها فقط ولكن أيضاً مع جيرانها وعلاقاتها الدولية ويؤكد ذلك دور "بريتور الأجانب" وحق الزواج وحق التقاضى والتعامل حيث شروط المعاهدات "المعاملة بالمثل" وعلى قدم المساواة وحق الملكية للأجانب ومن ثم تمت حماية الأجانب فى روما.

يؤكد ذلك أوريليوس اريستيديس حين قال:

"أن الذين يعيشون خارج نطاق إمبراطوريتك- أن كان لهم وجود- هم الجديرون وحدهم بالرتاء لحرمانهم من الخيرات فأنت الذي أوضحت خيرا من كل من عداك صحة المثل القائل: " أن الأرض أم للجميع"، وهي " الوطن المشترك لكل الناس". فالإغريقي أو البربري يمكنه أن يذهب بما يملك أو بدونه بسهولة حيث يشاء كما لو كان ذاهبا " من وطن إلى وطن" فلا أبواب كيليكيا ولا الجبال المنيعة ولا الأنهار العريضة، ولا القبائل التي تتحرش بالغرباء مما يثير الرعب فيكفي للأمان " أن يكون الأنسان رومانيا". فلقد أثبت " بالدليل العملي" قول هومر المأثور " أن الأرض ملك للجميع. فلقد زرعت العالم بأثره وأقامت مختلف أنواع القناطر فوق الأنهار وتحت الصخر في الجبال لتنشئ الطرق الممهدة للتجارة، وملأت البقاع القاحلة بالمزارع ويسرت الحياة للجميع في "ظل القانون والنظام".

" أن الدنيا التي كانت منذ البداية تعاني من " المرض" قد وجهت الآن إلى طريق "الصحة". وأن المدن في حالة البهائم والجمال والطمأنينة " والأرض بأسرها أنيقة كأنها حديقة".

سياسة الأرتقاء بالولايات الرومانية

أولت الإدارة الرومانية الإهتمام الكبير للولايات جميعها بالنسبة للمواطن فأنشأت المباني العامة والطرق وتسمية المنازل وترقيمها وإمدادات المياه وإضاءة الشوارع ليلاً وبناء الحمامات العامة وأماكن الترفيه ووجود أماكن للأحتفالات كالمسارح والسيرك وحلقات السباق والمعابد وذلك كله بالإضافة إلى نظام الأمن المشدد التي كانت ترعاه الإمبراطورية في القرن الأول والثاني الميلادى حتى ضعفت وأنهارت الإمبراطورية بداية القرن الثالث الميلادى. أصبحت الحراسة أحد الخدمات المدنية والإلزامية بمقتضى قانون سيفيروس وكاراكلا فكان الغرض الأساسى من تلك الوظائف المدنية هو أن يهتم مواطنوا تلك العواصم بالشئون الخاصة بمدينتهم مثل (المشرف على الجمنازيوم - المشرف على السوق - رئيس هيئة الموظفين - المشرف على التموين - مراقب السوق - الكاهن الأعلى وكانت تلك المناصب تشرىفاً لمن يتولاها ، أما السلطة المركزية وكانت وظائف مأجورة والتي كانت فى يد الأستراتيجوس وهو حاكم الأقليم والكاتب الملكى وهو الذى يحل محل الأستراتيجوس إذا ما خلت الوظيفة وكانت وظيفته الأساسية هى الأحصاء وموظف الأرشيف .

كان في إقليم دار خاصة لحفظ الوثائق ومن بعض المجالس التي
تعطى أهمية لسكان الولايات هي مجلس (الجيروسيا) وهو هيئة
اجتماعية تضم كبار السن من الطبقة العليا وقد تمتع هذا المجلس
بنفوذ كبير سواء على مستوى إدارة الولايات أو إدارة عواصمها .
كما أهتمت الدولة كثيراً بالبيئة فأهتمت بتخطيط المدن ورصف
طرقاتها و زخرفة الشوارع وترقيمها وإعطائها أسماء خاصة تبعاً
لقاطنيها وتشجير تلك الشوارع وإستحداث أنواع جديدة من
النباتات والأشجار وتنظيفها فقد كان هناك نظام للمجارى في المدن
وتوفير الأسواق الفسيحة ذات الشروط الصحية فكان إذا طبقت
الإمبراطورية نظاماً خاص بالنواحي الإدارية في ولاية كان يطبق
أيضاً في الولايات الأخرى فكان يجرى تعداد دقيق للولايات
الرومانية مرة واحدة كل أربعة عشر عاماً يقوم بتنفيذه المكلفين
بالخدمة المدنية.

على الرغم من كون الإمبراطورية الرومانية عرضها الرئيسي من السيطرة على غرب البحر المتوسط غرضاً إستعمارياً أنتقامياً للإستيلاء على ثرواتها وخوفاً من تنامي قوتها فقد عملت مع السيطرة عليها على محاولة دمج الشعب البربرى فى ثنايا الإمبراطورية الرومانية العملاقة فبقيت على نظم الحكم الإدارية إلا أن أدخلت بعض التغيرات التى من شأنها مساعدة موالىها فى إدارة تلك البلاد التى كان قاطنىها شديد البأس صعب المراس كثيراً ما يفتنون بالثورات والهجوم على أولئك الغزاة الذين سلبوهم أراضىهم وبيوتهم فكان على المستعمر الغازى محاولة إلهاء تلك الشعوب للبعد عن الثورات. وبالرجوع إلى سياستها السابقة فكان عليه إما إغماسهم فى الضرائب الجائرة وتشديد قوانين الزراعة لملئ السلة الرومانية بما تحتاجه من محاصيل (قمحاً أو كروم أو زيت الزيتون) أو حتى تجارة الحيوانات المتوحشة أو غيرها التى كان الرومان ليس بغنى عنها لترفيهم فى حلبات المصارعة وفى الإحتفالات العامة .